العوامل المؤدية إلى انعدام التكامل فى الشخصية

بقلم
زكريا ابراهيم
مدرس بمدرسة السويس الثانوية

يعرف شيفر التكامل بأنه الحالة التى تكون فيها عادات الفرد وإدراكاته وحوافزه وانفعالاته ، متآزرة تمام التآزر ، بحيث ينشأ من ذلك كله توافق حقيقى فعال(١) . فالشخصية المتكاملة هى التى يكون سلوكها عبارة عن استجابة ملائمة يصدر فيها الفرد عن نظام موحد لا يتجزأ . ومعنى هذا أن التكامل هو تلك العملية التى من شأنها أن تؤدى إلى توحيد الأجزاء ، بحيث يأتلف من مجموعها « كل » منسجم يتحقق فيه التوافق والاتزان(٢). وبعبارة أخرى فان معنى التكامل هو « تضامن مختلف الوظائف وتنظيمها ، بحيث تضمن اتزان السلوك وانسجام مظاهره بعضها مع بعض »(٣) .

أما الشخصية غير المتكاملة فهى تلك التى تستجيب للموقف بأسلوب مفكك . وعلى نحو جزئى ، دون أن تستفيد من تجاربها السابقة ، وخبراتها الماضية(٤) . ومثل هذه الاستجابة المفككة لا تعبر عن الذات الإنسانية تعبيراً صحيحاً ، لأن من طبيعة هذه الذات ان تؤلف بين الماضى والمستقبل فى « الحاضر » فتعمل من حيث هى «ذات» لها ماض معين ، ومستقبل خاص(٥). وعلى ذلك فان الشخصية المتكاملة تربط الحاضر بالماضى دائماً ، محاولة أن تستفيد من التجارب السابقة ، فى فهم المواقف الحاضرة ، والاستعداد للظروف المقبلة(٦). وأما الشخصية التى يعوزها الاتزان والتوافق ، فهى التى لا تجد فى نفسها القدرة على أن تحشد خبراتها الماضية ، لمواجهة

(١) L. F. Shaffer : "The Psychology of Adjustment", New-York, 1939., P. 382.

(٢) H. B. English: "A Student's Dictionary of Psychological Terms.", New-york, 1934., P. 67.

(٣) الدكتور يوسف مراد : « شفاء النفس » ص ١٢٠ — (٤) المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

(٥) J. Wahl: "Existence Humaine et Transcendance.", 1944, Neuchatel., P.32-33.

(٦) « مجلة علم النفس » ، المجلد ٢ ، العدد ٣ ، الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى » ، ص ٤٣١

مطالب الموقف الحاضر،[١] ومن ثم فانها تستجيب للموقف استجابة خائبة ، أو استجابة شاذة .

وقد اهتم كثير من الباحثين بتعرف العوامل المؤدية إلى انعدام التكامل فى الشخصية ، فوجدوا أن هذه العوامل ترجع فى النهاية — جميعاً — إلى انعدام التنظيم والافتقار إلى الترابط ، فيما بين سائر مقومات الشخصية . وعلى الرغم من أن أحداً لم يستطع بعد أن يتوصل إلى قياس درجة تكامل الفرد بدقة ، فإن فى استطاعتنا — بالرجوع إلى الحالات الخاصة التى درست جيداً — أن نحدد طائفة من العوامل الضارة التى تسبب انعدام التكامل فى الشخصية ، على وجه العموم[٢] .

والعامل الأول فى هذه العوامل هو الافتقار إلى الحياة المنظمة . فليس من شك فى أن الطفل الذى لا يعوّد على أسلوب منظم فى تناول الطعام ، وارتداء اللباس ، وطريقة النوم ، فضلا عن العناية بما يملك ، واحترام حقوق الآخرين ، مثل هذا الطفل لا بد أن يصبح شخصية غير متكاملة ، يعوزها التوافق والانسجام . فمن الضرورى إذن لتحقيق التكامل فى الشخصية ، أن يكون ثمة أسلوب خاص يتبع بنظام ، ويراعى باستمرار ، حتى يصبح طريقة مألوفة منتظمة ، تحقق التوافق فى حياة الفرد .

وأما العامل الثانى فهو انعدام الرقابة والحاجة إلى القيادة الخاصة . ولا ريب أن الطفل الذى يسير على هواه — دون رقابة أو إشراف — لا يمكن أن تنمو لديه القدرة على التحكم فى نفسه ، بالأسلوب التكاملى المنشود . ذلك لأنه لن يستطيع أن يعتاد إرجاء إشباع الرغبة الحاضرة ، والحاجة المباشرة ، فى سبيل تحقيق غاية بعيدة أو هدف أسمى . ولعل من هذا القبيل ما يروى عن ذلك الطفل الذى نشأ فى أسرة مهملة ، فبلغ الثامنة من عمره دون أن يكون قد تعلم مبادئ القراءة الأولية ، واعتاد أن يقاطع كل من يتحدث إليه ، ويطلب معلومات حينما يواجه بسؤال ، فضلا عن حاجته دائماً إلى رقابة قوية وتوجيه صارم ، لكى يقوم بأى عمل ؛ إلى جانب ميله الشديد إلى الكذب ، ومحاولته التدخل فى كل عمل لا يعهد به إليه . . . هذا السلوك الشاذ الذى نجده لدى مثل هذا الطفل ، إنما هو فى الحقيقة وليد البيئة التى نشأ فيها ،

---

(١) H. L Hollingworth: "Abnormal Psych. "New-York, 1930., P. 240-1.

(٢) Shaffer: "Psychology of Adjustment.", P. 384-87.

والوسط الذى تربى بين ظهرانيه . ذلك لأنه قد وجد بالبحث ، أن أم هذا الطفل كانت تأبى دائماً أن تتقبل أى تبعة تلقى عليها فيما يتعلق بهذا الطفل . فهى لم تكن تهتم بالسؤال عنه ، أو التعديل من سلوكه . وانما كان موقفها منه ، هو الإهمال التام ، بدعوى أن حياة الطفل أمر خاص به ، فهى لا تعنى أحداً غيره . ولا ريب أن من الطبيعى — فى مثل هذه الظروف — أن ينشأ الطفل شاذاً ، غير مؤدب ، فيصبح سلوكه منحرفاً ، ويميل إلى إحداث الشغب فى البيت . والتحدث بصوت مرتفع ، وينزع إلى الإتلاف والتحطيم . . . أما عدم مقدرته على القراءة فى المدرسة ، فلم تكن براجعة إلى نقص فى قدرته العقلية ، لأن مستوى ذكائه كان يزيد عن المتوسط ، وإنما كانت ترجع إلى عدم قدرته القيام بأى عمل يتطلب التحكم فى نفسه ، وتركيز قواه فى شىء واحد . وهذه المشاكل التى واجهت هذا الطفل ، تمثل لنا سلوك طفل لا تتوفر لديه أية مقدرة على التحكم فى نفسه ، لأن أحداً لم يهتم بارشاده وتوجيهه التوجيه الصائب المعقول . . .

وهناك عامل ثالث من شأنه أيضاً أن يؤدى إلى انعدام التكامل ، وهذا العامل الجديد هو النظام الصارم العنيف ، والكبت الزائد عن الحد . وغنى عن القول أن كل نظام تعسفى شديد ، من شأنه أن يعرض شخصية الطفل للتوافق السىء ، نتيجة لكبت ميول الطفل . فالطفل الذى يفرض عليه أن يطيع أوامر هو لا يستطيع أن يفهمها ، أو الذى يطلب منه أن يعمل بعكس ميله أو رغبته ، لا بد أن ينعدم لديه كل ترابط — أو تآزر — فى الفكر والفعل معاً .

وثمة عامل رابع يتمثل فى الرقابة المترددة المتعارضة ، لأن الرقابة على الطفل إذا تراوحت وتذبذبت ، فكانت صارمة حيناً ، لينة حيناً آخر ، وكانت عنيفة تارة ، متسامحة تارة أخرى ، فإن الطفل لن يعرف ما يجب أن يتوقعه ، وبالتالى فإنه لن ينمو لديه أى مستوى سلوكى متماسك ، أو أى أسلوب نفسى مترابط . ولعل من هذا القبيل ما ينشأ نتيجة للتعارض الذى قد يوجد بين الأفراد الذين يقومون بتوجيه الطفل والإشراف على تربيته . فإذا اختلف الوالدان بصدد النظام ، أو تنازعا فى أسلوب التربية ، أو إذا كان للطفل جدة تسمح له بأن يفعل ما ينهاه عنه الوالدان ، فان من المحتمل جداً أن يترتب على ذلك انعدام التكامل فى شخصية الطفل .

وهناك عامل خامس ينحصر فى الزجر المستمر والدفع الغاشم . وليس من شك فى

أن لهفة الآباء حينما تكون من الشدة ، بحيث لا يعطى الطفل الوقت اللازم ، لكى يكيف نفسه مع الموقف الواحد الذى هو بصدده ، بل يدفع دفعاً إلى موقف آخر ؛ فإن تكامل الشخصية يستهدف فى هذه الحالة لخطر شديد . ولعل من هذا القبيل حالة ذلك الطفل الصغير الذى كان يلقى من والديه معاملة غريبة شاذة ، فنشأ عصبياً منحرف المزاج ، ولم يكن يستطيع مطلقاً أن يواصل أى عمل . ولقد وجد أن أم هذا الطفل كانت تهتم بمشاغل اجتماعية كثيرة تجعلها دائماً متسرعة متلهفة ، فكانت توقظ طفلها فى الصباح المبكر ، وتلبسه ملابسه بسرعة ، لأنها لم تكن تستطيع أن تنتظر ريثما يلبس هو بنفسه . فكان الطفل يدفع دفعاً ، وكان يجبر على الاستجابة لما يعدو قدرته الشخصية ، وتبعاً لذلك فقد نشأت لديه أعراض عصبية . ومعنى هذا أن الطفل لم يعود على الاعتماد على نفسه ، لأن كل شىء كان يعمل له ، مما كان يمكن أن يعمله هو بنفسه ، لو أنه أعطى الوقت الكافى . وإذن فالسرعة الزائدة عن الحد ، والرغبة فى إيقاف بعض ضروب النشاط لدى الطفل ، من أجل استثارة ضروب أخرى جديدة ، من دون تعقل أو تبصر ، كل هذا من شأنه أن يعمل على نشأة شخصية مفككة غير متكاملة .

وأما العامل السادس فهو الوالدان العصابيان . وليس من شك فى أن الطفل الذى ينشأ بين والدين مصابين بمرض نفسى ، فإن هذه النشأة تكون بداية سيئة فى سبيله إلى تحصيل التكامل ؛ وذلك لأن من المحتمل أن يأخذ الطفل عنهم أساليبهم الشاذة فى الاستجابة ، عن طريق المحاكاة والإيحاء . — ولكن حتى إذا لم يحدث هذا ، فإن الطفل قد يقع تحت رقابة شاذة ، إذ يفرض عليه الخضوع لأساليب غير معقولة ، لوالدين لا يمكنهما أن يكونا معقولين فى أساليبهما الخاصة . . .

وثمة عامل سابع يتمثل فى البيت المتشاجر الذى ينعدم فيه الانسجام ، ويسود فيه النزاع والخصام . وغنى عن القول أن من أشد الظروف خطراً على تكامل الطفل ، وجوده فى بيئة عائلية يشيع فيها الشقاق والتنازع ، لأن هذا من شأنه أن يدفعه إلى التحيز لأحد الجانبين ، فيترتب على ذلك أن ينشأ فى نفس الطفل تعارض قوى وصراع عنيف ، فيما يتعلق بطاعته لوالديه وخضوعه لأوامرهما . ولا ريب أن المشاجرات العائلية تفضى دائماً إلى انعدام ثقة الطفل فى والديه ، مما يضعف سيطرتهم ، ويحد من رقابتهم ؛ وهو ما يؤدى إلى انصراف الطفل عن الاعتراف لهم

وتطلب النصيحة منهم . وأما حينما ينشأ لدى الطفل صراع نفسى عنيف يعبر عن حيرة الطفل فى طاعة والديه والخضوع لأوامرهما — كما قد يحدث حينما يجد نفسه بإزاء والدين كل منهما يبغض الآخر — فهنالك تتولد فى نفسه عادات « الفعل المنقسم على ذاته » ، وبالتالى فإن التكامل يستهدف لخطر عظيم . . .

وثمة عامل ثامن أيضاً ، ينحصر فى « البيت المحطم » . وليس من شك فى أن البيئة العائلية المختلة التى هجرها أحد الوالدين ، هى من أهم العوامل التى تؤدى إلى سوء التوافق لدى الطفل ، كما تدلنا على ذلك الإحصائيات المتعددة . وفى مثل هذه البيوت المحطمة ، أو البيئات المختلة ، نلاحظ أن النظام ينعدم ، والقيادة تضعف ، والعاطفة تنحرف ، مما يترتب كله على هجر أحد الوالدين للمنزل . وعلى الرغم من أن كل هذه العوامل من شأنها أن تؤدى إلى انعدام التكامل ، فإن هذا لا يمنعنا من أن نقول إن كثيراً من البيوت التى هجرها أحد الوالدين ، قد لا تكون مختلة سيئة ، إذا استطاعت أن تتجنب ما يترتب على حالتها الخاصة من ظروف سيئة وأخطاء ضارة .

ومن العوامل التى تؤدى إلى انعدام التكامل أيضاً ، شتى الحالات التى تفضى إلى الكبت ، أو التى تحول دون إعطاء الثقة ، وتقبل النصيحة . ولا شك أن الشخص الذى يعمد إلى الكبت ، لن يستطيع أن يرى مشاكله فى جملتها « ككل » ، وبالتالى فإنه لن يتمكن من أن يحقق التكامل فى شخصيته .

وأخيراً ، نلاحظ أن سائر العوامل الانفعالية التى قد تعصف بالحياة النفسية ، كثيراً ما تكون ضارة بالتكامل . ولا ريب أن الحالة الانفعالية هى حالة تمثل نشاطاً غير متآزر ، فهى تحول دون مواصلة التقدم فى أسلوب بنائى هام هو أسلوب المحاولة والخطأ . ومعنى هذا أن المشاكل الانفعالية لا تنفصل بالضرورة عن المشاكل المؤدية إلى نقص التكامل أو انعدامه . . .

* * *

تلك هى العوامل التى تؤدى إلى انعدام التكامل فى الشخصية ، على نحو ما نستطيع أن نستخلصها من مراجعة الحالات المختلفة . ولسنا فى حاجة إلى القول بأنها جميعاً تعبر عن الافتقار إلى تدريب منظم على الفعل الموحد ، فهى مجرد استقراء للحالات المختلفة التى ينعدم فيها التآزر والاتزان . ولعل فى وسعنا (فى ختام هذه

العجالة القصيرة)، أن نقول . إن معظم الحالات التى تؤدى إلى انعدام التكامل فى شخصية الطفل ، إنما هى وليدة البيئة المنحرفة المختلة ، والتربية السيئة الملتوية . فالشخصية المفككة غير المتكاملة ، هى فى أغلب الأحيان ، ضحية البيئة الفاسدة ، والتربية الناقصة ، والتوجيه الشاذ .

زكريا إبراهيم